المراهقة[1]

أصل رهق في اللغة بمعنى دنا وأزف، يقال: رَهِقَ مجيء فلان، إذا دنا وأزف، ويقال: صلى العصر مراهقًا، أي مدانيًا للفوات، فاستعملوا كلمة المراهق لمن دنا بلوغه، ولما لحظوا أن سن المراهقة طيش وخفة، قالوا: رَهِق الرجل إذا سفه وخفَّ.

وهي بهذا الوضع ليست مساوية تمامًا لكلمة adult الإنجليزية؛ لأنهم يطلقونها على ما قبل البلوغ إلى سن النضج، فهي في اللغة الإنجليزية أطول منها زمنًا.

ولا بد لنا من دراسة الأمور الآتية حين نريد أن نقرر القيمة الاجتماعية لجيل من ذوي الأسنان المتحدة:

(١) دراسة علمية للتطور البدني والعقلي.

(٢) موقع أهل السن الواحدة من القوانين المنظمة للعلاقات الاجتماعية، والواجبات، والامتيازات.

(٣) مدى اشتراكهم في نواحي النشاط الاجتماعي والاقتصادي.

(٤) الأفكار الدينية والأخلاقية الناتجة عن سلوكهم وقيمتهم الاجتماعية.

على هذه الطريقة درست فترة الطفولة، فعرف مثلًا أن التقدم البدني والعقلي في السنين الثلاث الأولى أكبر منه في سن السادسة إلى التاسعة أو من البلوغ إلى سن الحادية والعشرين، وكان لدراسة الطفولة دراسة علمية أعمق الأثر في نظامنا الاجتماعي الحديث.

---

[1] محاضرة ألقيت في معهد التربية.

أما المراهق فتعيين موقعه وتأثيره أصعب، فهو قادر بدنيًّا وعقليًّا، حين يكون مراهقًا طبيعيًّا لا شذوذ فيه، على أن يقوم بما يقوم به الكبير، كما يفعل ذلك في الأمم البدائية على وجه الخصوص، فهو يستطيع أن يكسب عيشه، وينتج نسلًا، ويقاتل، ويشارك في النشاط الاجتماعي والديني، غير أنه يظهر فجًّا فيما يتعلق بالنواحي الاجتماعية الدقيقة، وهو يبدو كبيرًا، وإن كان في حقيقته غير ذلك، وقد حرمته الشعوب — بدائية أو متحضرة — الاشتراك السياسي التام، وأعفته من كثير من المسئوليات الاجتماعية والقانونية، وهذا التصرف القائم على العرف ليس له ما يبرره من وجهة علمية.

وقد مرت دراسة المراهقة في أربعة أطوار:

(١) الاتجاه نحو النمو البدني، وهو الاتجاه الفيزيولوجي.

(٢) اتجاه علماء النفس لدراسة الخلافات الفردية، والتطور المستمر.

(٣) تحليل ما اكتشف في الخطوتين السابقتين، وقيام نظرية أن دور المراهقة هو «دور العاصفة والكبت».

(٤) التعريف بمشاكل المراهق من وجهة النظر الاجتماعية.

وقد وجدت طلائع الباحثين في الميدان الفيزيولوجي منذ ١٨٣٥ ونشطت الدراسات الفيزيولوجية بعد ذلك في كثير من الأقطار، وقد درس ب. ت بلدوين ٥٣٨٥٤٠٠ حالة، وخرج بعدة استنتاجات قيمة، فوجد أن هناك تذبذبًا في النمو والطول والوزن قبل البلوغ، ووجد بطئًا في النمو في نهاية الفترة السابقة للدراسة، وتصاعدًا فيه حوالي السابعة عند البنات والثامنة عند الأولاد، وانخفاضًا ملحوظًا في الزيادة المئوية للنمو في التاسعة عند البنات والحادية عشرة عند الأولاد، ويتبع ذلك طفرة من النمو تبلغ أشدها في الخامسة عشرة عند الأولاد، وفي ١٢–١٣ ½ عند البنات، ووجد أن أول حيضة عند البنت الأمريكية الطبيعية تتراوح بين العاشرة والسابعة عشرة.

وهناك إسراع في الطول والوزن والقدرة على التنفس في فترة المراهقة، وتغير عميق كذلك في النظام البدني؛ فالنمو عند البلوغ يترك أثرًا في كل جزء من الجسم — قل أو كثر — ولكن بنسب مختلفة، فبينا تكبر العضلات والقلب، يكاد الدماغ لا يتأثر أبدًا، وإذا بكر البلوغ صحبه توقف سريع في نمو القامة، ولكن يظل فعل النضج ساريًا في النواحي الأخرى.

وفي سنة ١٩١٥ قامت هلن تومسن وولي بدارسة ٥٤٨٣ مراهقًا بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة مقسمين إلى فئتين في العمل والمدرسة، وأجريت لهم اختبارات بدنية

وعقلية سنويًّا لمدة خمس سنوات، وحصرت الدراسة على البيض الوطنيين في سنسناتي وأهايو، وأخذت لأول مرة في التاريخ قيود للمنزلة البدنية والعقلية عند نماذج من المراهقين من عام لعام، وسجلت تواريخ حياتهم المدرسية أو الصناعية، وأحوالهم البيتية وتواريخهم الاجتماعية إن كان ذلك مستطاعًا.

واحتوت اختبارات سنسناتي على قياسات للطول والوزن والطاقة والقوة اليدوية والثبات والسرعة والانسجام بين اليد والعين، واختبارات للذكاء شملت الذاكرة والإدراك والتمييز والتفكير … ودلت المقارنة بين طلاب المعمل وطلاب المدرسة أن الفريق الثاني أعلى من الأول في المقاييس البدنية والعقلية من ١٤–١٨. وهناك ما يشير إلى أن النمو العقلي يستمر عند أبناء المدارس عمرًا أطول منه عند الأطفال العاملين، ومع ذلك فنتائج هذه الدراسات ليست حاسمة ولا تزال نسبة النمو متوقفة على عوامل من الجنس والعمر والتنشئة البيتية …

وفي ميدان الكفايات البدنية تتم البنات دورة النمو السريع في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، ولا يكسبن إلا قليلًا بعد السابعة عشرة، وبذلك يسبقن الأولاد بسنة أو اثنتين، أما في النمو العقلي فليس هناك مثل هذا الاختلاف القائم على الاختلاف الجنسي؛ فالأولاد والبنات متوازون في كسبهم السنوي، كما يدل على ذلك ما لدينا من اختبارات، وليس لدينا في الحاضر ما يحدد السنة التي يتم عندها التطور العقلي، ولكن هناك ميلًا لاعتبار ١٤ و١٥ هي السن لتوقف النمو العقلي عند الجنسين، والممتازون من الأطفال يستمر نموهم هذا أكثر من البلداء.

وقد كانت الدراسة النفسية نافعة جدًّا في أمور التعليم، ولكنها تلقي ضوءًا خفيفًا على مشكلة المراهق في الهيئة الاجتماعية.

وقد وصف الكتاب الأقدمون فترة المراهقة بأن نسبة الوفيات تقل فيها، وأن الشواذ في النمو تقل عند البلوغ، وأن الأمراض المعدية نادرة، وأضافوا إلى ذلك وصفهم لهذه الفترة بأنها تتميز بالطيش وسوء الترتيب، وأوحت المظاهر الروائية للبلوغ بالقول: إن البلوغ ميلاد جديد تظهر فيه العلامات الإنسانية الكبرى، وأوحى عدم التناسب في نمو العظام والعضلات وغيرها من غدد وأعضاء بأن هناك عدم انسجام في الناحيتين العاطفية والعقلية وأن ذلك يحتوي على أخطار، واعتبر المراهق «عائدًا على بدئه» ancestral-atavistic [وفي البيولوجيا ativiam هي عود الخلف إلى ما كان عليه السلف من تركيب بنية] أو «نازعًا به عرقه»، وأنه عرضة «للعاصفة والكبت» اللذين ينازعان موروثه من أجداده في التحكم والسيادة.

وقد نشر ستانلي هول هو وتلامذته كثيرًا من المسائل حول المراهق وشئونه، كالخيال، وأحلام النهار، والتروض، وحب الحياة، والاتجاه الديني، وبعض الكفايات الأخرى، ودرست تراجم الرجال العظام والنساء، ولوحظت خصائص فترة الشباب عندهم، ومن هذه الدراسات وضع هول عشر خصائص للبلوغ؛ هي:

(١) الانشغال الداخلي والاستغراق في التفكير، وهو ما عبر عنه بالرقابة المزدوجة على الشعور.
(٢) تولد الخيال وكثرة الرؤى والأحلام والأوهام.
(٣) انتقاء النفس والشكوك والريب.
(٤) المغالاة في الفردية.
(٥) التقليد في أشد حالاته.
(٦) تمثيل دور روائي، والتشبث بعادة ما.
(٧) الحماقة، والتفاهات، والاستسلام للنزوات.
(٨) وجدان كلامي جديد.
(٩) الانهماك في الصداقة.
(١٠) تعطيل التوجه نحو الزمان والمكان، وتشكل فكري وعاطفي عظيم.

وبالإجمال يجب أن نعتبر فترة المراهقة مميزة بفك الروابط القائمة بين العوامل القوية للذات؛ جسميًّا ونفسيًّا، وهكذا نجدهم جعلوا مظاهر المراهقة شبيهة بالأعراض الهستيرية، وذهبوا إلى أن المتعصبين من المتدينين ليسوا إلا مراهقين؛ تضخمت عندهم المميزات والخصائص التي تكون طبيعية في غيرهم.

وقد اتجهت الدراسة الحديثة نحو المظهر الاجتماعي للمراهقة، وقد دلت الدراسات على أن في طور الطفولة وما بعده بقليل يحدث عدم الانسجام malad Justment. وحين يكون المراهق شاذًّا غير طبيعي فمرد ذلك إلى الحالة الاجتماعية، ويقول و. توماس: إنه إذا تطورت بذور الاجتماع ببطء أكثر من الحيويات الفردية والابتكارات؛ فنتيجة ذلك مرحلة من الفوضى تظهر في الأفراد كما تظهر في المجتمع، وحين لا تظل العادات القديمة ملائمة، تتحطم وتنشأ عادات جديدة، ولكن لا بد قبلها من فترة يظهر فيها عدم الاستقرار، والشاب في القرن العشرين، في صراع دائم مع القيم الأخلاقية في البيت، والمدرسة، والكنيسة، والمجتمع، أضف إلى ذلك الفوضى في مسائل اللباس والعادات

ونواحي النشاط التي ينتحلها الكبار؛ حتى إن الشباب لم يعودوا يعرفون لهم أهدافًا واضحة من النضج؛ لينسجوا على منوالها، واليوم قد زادت العناية بالأطفال وصغار الطلاب في المدارس أكثر من قبل؛ بالاعتماد على المناهج العلمية المتبعة في التغذية والنوم والتمرين، أما المراهق فهو معرض للاعتماد المبكر على نفسه.

ومع ذلك فالعقبات التي قلنا: إنها مسببة عن خصائص إنسانية أساسية ليس لها وجود عند جماعة كأهالي ساموا، إن المدنية قد فرضت قيودًا من جهة، وزادت في التنبه من جهة أخرى، وليس هناك من دليل على أن المكافحات والعقبات أمام المراهق ضربة لازب، إن سلوك المراهقين في المجتمع الحديث وأعراض القلق وعدم الانسجام ليست براهين على أنها خصائص عادية في جيل من ذوي السن الواحدة.

وكثيرًا ما أولت الشعوب الساذجة لمظاهر البلوغ في البنت والولد اهتمامًا واضحًا بمزاولتها بعض أنواع البتر العضوي (الختان …) وفرض الصيام وإقامة الأعياد؛ وذلك ليدلوا على أن هذه الفترة مرحلة مهمة من مراحل الحياة، وبعض هذه الطقوس موجود في أفريقيا وآسيا وأندونسيا وأستراليا وأمريكا الشمالية والجنوبية؛ وهناك إلى جانب هؤلاء أقوام بدائية أخرى لا تعير البلوغ اهتمامًا، ويعلل ذلك بعض الدارسين بأن الهيئة الاجتماعية الساذجة تشغل المراهق بمشاريع وأهداف مختلفة، فلا تترك له فرصة للتعبير عن نفسه، ولكن العالم الأنتروبولوجي يشك في صحة هذه الدعوى، والذي يتغلغل في بيئة ساذجة ويعرف لغتها ويتغلغل في حياة الناس فيها وشعورهم؛ يجد تلك البيئة تقدر تمامًا المراهقة وتهتم بالتكوُّن الفردي للمراهق، كما تحسب حساب ميله إلى الاستقلال والحرية.

أما القيمة الاجتماعية الجديدة فتظهر في نواح مختلفة في تغيير المسكن، وفي الدخول في هيئات الشباب، وفي اختبارات المهارة الشخصية ومدى الاحتمال، والنظر باهتمام إلى أحلام المراهق ورؤاه، والانفصال من العائلة، والانعزال في غابة أو صحراء، والتحرر من قيود الطفولة، واستعمال الزينة.

وقد دلت الدراسات العصبية الحديثة على أن النضج عملية دقيقة تمتد إلى فترة طويلة بعد استكمال الحجم والوزن، وقد فهم رجال القانون هذه الحقيقة فترددوا في إعطاء الشبان أمر إدارة الأمور الكبيرة حتى يبلغوا سن الحادية والعشرين، ومع ذلك فإننا نرى بعض التشريع يحمل ابن الرابعة عشرة أو السادسة عشرة، يحمله مسئولية في الأمور الجنائية، ولا تزال البراهين القاطعة غير موجودة، ولكن تتفق كل الدراسات على أن كمال النظام العصبي لا يتم حتى منتصف العقد الثالث (سن ٢٥).

وليس ينتظر ما يسمى في العادة حكمة وتعقلًا من المراهق الطبيعي في العقد الثاني (١٢–١٩).

وقد مدت الشعوب المتمدنة في أوربة وأمريكا فترة التعليم الإجباري إلى ١٦–١٨، وأخذت الدولة على عاتقها أمر الإرشاد الدراسي والمحصني للمراهقين، وقد أخذت الشاب يستمتع بالتحسن في مناهج الاجتماع، ويهتم بالسلم والحرب والمساواة الاقتصادية والديموقراطية.

نعم؛ إن الموقف الاجتماعي معقد، ولكن الشباب يظل هو الشباب، فترة من الحياة يكون فيها النشاط البدني والعقلي على أشده، ويصبح دور الكبير متمثلًا أمام عيني الشاب، ولكنه لا يستطيع الاشتراك التام في النواحي الاجتماعية؛ لعدم نضجه في نواح بيولوجية، وما دامت الحال الاجتماعية في أيامنا مرضية نوعًا؛ فسيظل الشباب في صراع مع المعايير الاجتماعية السائدة.